مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ISSN : 2353-0472
المجلد6 ، العدد15، (سبتمبر2018) EISSN : 2600-6405

دور عائلة بني حمدون في تثبيت أركان دولة الفاطميين بالمغرب (280-360هـ/ 893-970م)

الأستاذ: نورالدين مسعودي
جامعة المدية

الملخص:

يتضمن هذا البحث دراسة حول الدور الذي لعبته عائلة بني حمدون في نشر الدعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب، وإسهاماتها الكبيرة في تثبيت أركان الدولة الفاطمية في المغرب، ولإماطة اللثام عن هذه العائلة قسّمنا دراستنا هاته إلى أربعة عناصر، تناولنا في الأول؛ أصل ونسب عائلة بني حمدون، وتطرقنا فيه لتاريخ العائلة ومذهبها وبداية تواجدها في بلاد المغرب، وفي العنصر الثاني تناولنا ولاية بني حمدون على المسيلة وبلاد الزاب، أما العنصر الثالث فتطرقنا فيه إلى وقوف بني حمدون في وجه مناوئي الدولة الفاطمية، أما العنصر الرابع والأخير فتناولنا فيه نكبة بني حمدون.

Abstract:

This research includes a study on the role played by the Bani Hamdoun family in the dissemination of the Ismaili da'wa in the Maghreb and its great contribution to the consolidation of the foundations of the Fatimid state in Maghreb. In order to reveal this family, we have divided this study into four elements.We discussed in the first; the origin and proportions of Bani Hamdoun, and touched on the history of the family , its doctrine and the beginning of its presence in the Maghreb, In the second element, we discussed the state of Bani Hamdun in M'sila and al-Zab territory . The third element dealt with the Bani Hamdoun stand against the opponents of the Fatimid state. The fourth and last element deals with the defeat of Bani Hamdoun.

كانت لبني حمدون منزلة وأهمية بالنسبة للخلافة الفاطمية لا تشبهها إلا منزلة البرامكة في حياة الخلافة العباسية، مع فارق هام هو أنّ بني حمدون ساهموا في

التأسيس والتدعيم والحراسة ودفعوا في سبيل ذلك أرواحهم، ومقابل ذلك لم ينس الفاطميون الخدمات التي قدمتها لهم عائلة بني حمدون، فقاموا بتقريبهم، ورشحوهم لأعلى المناصب في الدولة، وكانوا سيقومون باستخلافهم على بلاد المغرب لولا نقص حنكتهم السياسية التي أوردتهم المهالك في نهاية الأمر.

1- أصلهم ونسبهم:

ترجع أصول أسرة بني حمدون(علي المعروف بالأندلسي وأولاده جعفر ويحي) إلى جدهم حمدون بن سملك بن سعيد بن إبراهيم... بن أحمد بن عبد الحميد الجذامي نسبة إلى قبيلة جُذام القبيلة اليمنية القحطانية[(1)]، وحسب ابن حيان وابن عذارى نقلاً عن الورّاق[(2)]؛ فإنّ لقب الأندلسي الذي عُرِفت به العائلة يعود لكون جدهم عبد الحميد هاجر من الشام إلى الأندلس ونزل بكورة البيرة[(3)] بقرية من قرى قلعة يحصب[(4)]، ويُرجّح بعض الدارسين أن دخول عبد الحميد إلى الأندلس

[(1)]- ابن حيان، أبو مروان القرطبي(ت469هـ/1076م): المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تح: عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965، ص33؛ وعند ابن خلدون:"حمدون بن سمّاك بن مسعود بن منصور والجذامي يعرف بابن الأندلسي...". انظر: ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد(ت808هـ/ 1405م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج4، ص107.

[(2)]- هو محمد بن يوسف الوراق(291-362هـ/904-973م) أندلسي المولد وأصله من وادي الحجارة تحديدا، انتقل مع أسرته إلى إفريقية فنشأ بالقيروان ودرس بها، ثم عاد إلى قرطبة أيام الحكم المستنصر(350-366هـ/961-976م) وكانت له حظوة عنده، له عدة مؤلفات في الجغرافيا والتاريخ ضاعت كلها ولم يبق منها إلا ما نقله عنه الآخرون، ألف الوراق ديوانا ضخما في" مسالك إفريقية وممالكها" اعتمد عليه البكري اعتمادا كبيرا، توفي الوراق في قرطبة سنة 291هـ/973م. انظر: آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011، ص353.

[(3)]- البيرة(elvira)، من كور الأندلس تقع شرق قرطبة بينها وبين غرناطة ستة أميال جليلة القدر حولها أنهار كثيرة، أسسها عبد الرحمن بن معاوية وأسكنها مواليه ، نزلها جند دمشق من العرب. انظر: الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص28.

[(4)]- ابن حيان: المقتبس، تح: الحجي، المصدر السابق، ص33؛ وابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج2، ص242.

كان مع جيش الشام الذي يعرف "بطالعة الشاميين" أو "الطالعة البلجية"[1]، ثم تَنقّل حفيده حمدون إلى المغرب الأوسط، ونزل ببجاية واستقر وعائلته في قرية تعرف بقسطلنانة[2]، وتذهب الدراسات إلى أنّ عائلة بني حمدون كانت على المذهب الشيعي قبل دخولها إلى المغرب[3]، فالأفكار الشيعية كان لها أنصارا في الأندلس قبل تأسيس الدولة الفاطمية[4]، ويذكر بعض الدارسين أنّ استقرار حمدون في إلبيرة يعود لوجود يمنيين يتقبّلون أفكار التشيع، فعمل على نشر دعوة الشيعة بينهم[5]، ومما يعزز هذا الطرح الرواية التي ذكرها ابن خلدون والتي مفادها أنّ علي بن حمدون اتصل بعبيد الله المهدي[6]وابنه أبا القاسم[1]بالمشرق قبل ظهور شأن

---

[1]- محمد اليعلاوي: بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هانئ الأندلسي، مجلة الأصالة، قسنطينة، عدد:24، 1975، ص49؛ ومحمد سعداني: أسرة بني حمدون الأندلسية ودورها في المغرب والأندلس، رسالة ماجيستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، إشراف محمد بن معمر، 2007-2008، ص12.

[2]- ابن حيان: المقتبس، تح: الحجي، المصدر السابق، ص33-34.

[3]- فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب، تر: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص549.

[4]- محمود علي مكي: التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004، ص7.

[5]- عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ط2، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999، ص131.

[6]- عبيد الله المهدي: هو أبو محمد عبيد الله الملقب بالمهدي، تساءل المؤرخون عن حقيقة انتسابه انتسابه إلى آل البيت، هل يعود نسبه إلى إسماعيل بن جعفر الصادق؟ أم هو من ذرية ميمون القدّاح الداعي؟. ولد بسلمية من بلاد حمص بالشام، وقيل ببغداد سنة 260هـ، وقصد المغرب متنكرا سنة 293هـ، حيث سبقه الداعي أبو عبد الله الشيعي إلى بلاد كتامة كي يمهّد لقيام الدولة الفاطمية، وفي سنة 297هـ دخل المهدي إلى رقّادة بعد أن أزاح أمراء الأغالبة، وبويع بالإمامة، وأُعلِن عن تأسيس الدولة الفاطمية، وكانت مدة ولايته أربعة وعشرون سنة، فخلفه بعد وفاته في سنة 322هـ ابنه أبو القاسم. انظر:ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص28-29؛ وابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج3، 117 وما بعدها؛ وابن الأثير، عزالدين الجزري: الكامل في التاريخ، تح: أبي الفدا عبد الله القاضي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987،ج6، ص446 وما بعدها.

الدعوة الفاطمية بالمغرب[2]، وفي هذا الاتجاه تذكر الروايات شخصية أبي عبد الله محمد بن حمدون أخ علي بن حمدون، الذي كان له اتصال بالدعوة الفاطمية في وقت مبكر، حيث يذكر القاضي النعمان أنّ أبا عبد الله الشيعي[3] عندما وصل إلى سوجمار من أرض سُماتة[4] قادما من المشرق، التقى بأبي عبد الله محمد بن حمدون فأُعجب بعلمه وفهمه، وعرض عليه أمر الدعوة دون غيره[5]، ويذكر ابن خلدون أن أبا عبد الله محمد بن حمدون الأندلسي كان تلميذًا للحلواني[6]الذي كان أحد دعاة

---

[1]- أبو القاسم: هو محمد نزار بن الخليفة المهدي- خليفة الفاطميين الأول- ويلقب بالقائم، ولد في سلمية ببلاد الشام بين سنتي 277 و282هـ، وقد صاحب والده عند رحيله من بلاد الشام إلى إفريقية حيث بويع بخلافة المسلمين وأقام الخلافة الفاطمية، وقد بايع الخليفة المهدي ابنه أبا القاسم بولاية العهد في حياته، ولما توفي أبوه جددت له البيعة وأصبح الخليفة الفاطمي الثاني وقد ظهرت مواهبه الحربية وتولى قيادة الجيوش في حياة أبيه، وقد نجح القائم في مهمة أوكلها الخليفة إليه سنة 315هـ حيث أرسله إلى بلاد المغرب لتأديب عدوة الفاطميين زناتة وغيرها من المخالفين، وقد أمكنه إخضاع قبائل زناتة وهوارة ولماية وكواية، وانتهى إلى برقة وتهرت كما أدّب الصفرية و الإباضية ثم عاد إلى المهدية، مات محصورا بالمهدية في سنة 334. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص19-20؛ وابن خلدون: العبر، ج4، ص51؛ والزركلي، خير الدين: الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ج6، ص259.

[2]- ابن خلدون: العبر، ج4، ص107.

[3]- هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيعي، ممهّد الدولة الفاطمية والقائم بدعوة عبيد الله المهدي وناشر دعوته في المغرب، هو من أهل صنعاء اليمن، كان من الرجال الدهاة، دخل إفريقية بلا مال ولا رجال، ولم يزل يسعى إلى أن ملكها، وسلّمها للمهدي، واستثقل المهدي وطأة الشيعي وتحكمه وانقياد كتامة إليه، فأمر بقتله مع أخ له يدعى أبي العباس، وكان ذلك في عام 298هـ. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص192.

[4]- سُماتة: مدينة صالحة من بطون نفزاوة، قريبة من إفريقية، وتقع على طريق سجلماسة، وبقاياها مقيمون بنواحي القيروان. انظر:ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص92؛ وابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص42.

[5]- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، تح: فرحات الدشراوي، ط2، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986، ص42.

[6]- الحلواني وأبو سفيان من الشيعة، أرسلهما جعفر الصادق، وقال لهما بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر، فنزل أحدهما ببلد مراغة، والآخر ببلد سوف جمار، وكلاهما من أرض كنانة. انظر: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة

الشيعة الأوائل في منطقة كتامة[1]، وأنّ مهمة الدعوة إلى الإسماعيلية في سُماتة وكتامة قد انتقلت إليه بعد وفاة معلمه الحلواني[2]، وعلى هذا أصبح أبو عبد الله محمد بن حمدون الذراع اليمنى لأبي عبد الله الشيعي، فصحبه في رحلته إلى قبيلة كتامة التي وصلوا إليها في سنة 280هـ[3].

ونعود إلى علي بن حمدون الذي استقر في قسطلنانة إحدى قرى بجاية، وفي عام287هـ رافق جده إلى الحج وهو في سن الثامنة عشر[4]، وأثناء رجوعه من الحج وقع في بلاد كتامة فتزوج من امرأة تدعى ميمونة بنت علاهم الجيملي من قبيلة جيملة الكتامية وأنجبت له كل من جعفر ويحي وعزيزة وزينب[5]، والتقى بأبي عبد الله الشيعي فأُعجِب به وكان اسمه الذي سماه به أبوه حمدون هو ثعلبة، فأطلق عليه أبو عبد الله اسم علي فغلب عليه هذا الاسم[6]، وعلت منزلة علي بن حمدون عند أبي عبد الله الشيعي وازداد حظوة لديه فكلفه بمهمة استخباراتية تتمثل في التقاء عبيد الله المهدي الذي وصل إلى طرابلس قادما من سلمية، وثنيه عن الذهاب إلى إيكجان[7]، ودفعه إلى تغيير مساره بسبب عيون الأغالبة التي كانت تترقب قدومه، فقرر التوجه مباشرة إلى سجلماسة[8]، ويذكر ابن خلدون أنّ علي بن حمدون رافق

الفاطميين الخلفا، تح: جمال الدين الشيال، ط2، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996، ج1، ص41؛ وابن خلدون: العبر، ج4، ص41.

[1]- المصدر السابق، ج4، ص42.

[2]- الدشراوي: المرجع السابق، ص85.

[3]- الداعي إدريس، عماد الدين(ت 872هـ/ 1488م): تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص88؛ والقاضي النعمان: المصدر السابق، ص47.

[4]- ابن حيان: المقتبس، تح: الحجي، المصدر السابق، ص34.

[5]- نفسه: ص34، 53.

[6]- نفسه: ص34.

[7]- إيكجان: جبل قرب سطيف تسكنه قبائل كتامة، وبه حصن حصين ومعقل منيع، وبينه وبين بجاية مرحلة ونصف. انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، ج1، ص269.

[8]- القاضي النعمان: المصدر السابق، ص163-164.

عبيد الله المهدي في رحلته إلى سجلماسة[1]، وهناك اعتقلهم اليسع بن مدرار بعد أن كشف أمرهم إثر رسالة من أمير الأغالبة زيادة الله الثالث(290-296هـ/ 903-909م)[2]، وأُطلِق سراحهم بعد أن زحف أبو عبد الله الشيعي على سجلماسة في شهر شهر ذي الحجة من عام 296هـ، ورجع بهم إلى رقّادة بعد أن استولى عليها بفضل انتصاره على جيش بني الأغلب، وليُعلن عن تأسيس الخلافة الفاطمية رسميا في ربيع الثاني 297هـ[3].

ولم ينس الفاطميون الخدمات التي قدمتها لهم عائلة بني حمدون، فقاموا بتقريبهم، ورشحوا علي بن حمدون لأعلى المناصب في الدولة[4]، ونشأ ابناه جعفر ويحي ببلاط القائم مع أولاد الخلفاء، فكان حاجب المنصور، الأستاذ جوذر[5] يسهر على تربيتهما كما يسهر على تربية أمراء الأسرة المالكة، وكانت أم المعز لدين الله أرضعت جعفر، فصارا أخوين بالرضاع[6].

2- ولاية بني حمدون على المسيلة وبلاد الزاب:

بعد إعلان الفاطميين عن تأسيس الدولة، جاء دور بسط السيادة والنفوذ على بلاد المغرب، فأرسل عبيد الله المهدي حملات عديدة، نجحت في الاستيلاء على نكور وفاس وسجلماسة، إلاّ أنّ قبائل زناتة المعادية للدعوة الإسماعيلية والمتحالفة مع أمويي الأندلس واصلت ثوراتها ضد الفاطميين، فقرر المهدي القيام بحملة ضدهم في سنة 315هـ/ 927م، وكانت هذه الحملة بقيادة ولي عهده محمد القائم، وخرج

---

[1]- المصدر السابق، ج4، ص107.

[2]- القاضي النعمان: المصدر السابق، ص165.

[3]- نفسه: ص276 وما بعدها؛ وابن خلدون: العبر، ج4، ص47؛ والداعي إدريس: المصدر السابق، ص158 وما بعدها.

[4]- ابن حيان: المقتبس، تح: الحجي، المصدر السابق، ص34؛ والهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية، تر: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ج1، ص47.

[5]- جوذر: الصقلبي الأستاذ؛ من رجال الدعوة العبيدية، كان في صباه عبدا لعبيد الله المهدي فأهداه لابنه القائم، وتقدم عنده حتى استخلفه وهو لا يزال وليا للعهد سنة 300هـ/972م. انظر: الزركلي: المرجع السابق، ج2، ص144.

[6]- الجوذري، أبو علي منصور العزيزي: سيرة الأستاذ جوذر، تح: محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، ص131؛ وابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص107؛ والهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص47؛ ومحمد اليعلاوي: المرجع السابق، ص50.

معه علي بن حمدون[1]، فنجحت الحملة وفي طريق العودة لفتت منطقة المسيلة أنظار أبي القاسم لما تتمتع به من موقع استراتيجي هام يمكّنه من حماية النفوذ الفاطمي في المنطقة ومراقبة مضارب زناتة المشاغبة، وإخضاع القبائل البربرية الأخرى في منطقة المغرب الأوسط، وقد عمدوا إلى بناء المدينة في وسط بعض بطون وفروع تلك القبائل حيث يقول الإدريسي:"ويسكنها من البربر بنو برزال وزنداج وهوارة وصدراتة ومزاتة"[2]، وزيادة على الموقع المناسب استرعى انتباه الفاطميين ما تتمتع به المنطقة من ثروة اقتصادية؛ اعتبروها موردًا هامًا للمئونة التي هم في أمسّ الحاجة إليها، حيث توفر عليهم مشقة جلبها من إفريقية؛ فأصدر أبو القاسم محمد القائم ولي عهد عبيد الله المهدي أمرًا إلى علي بن حمدون بإنشاء مدينة المسيلة وكان ذلك في سنة 315هـ/927م [3]، وينفرد الداعي إدريس بذكر شهر تأسيس المدينة وهو شهر جمادى الثانية[4]، وفي هذا الصدد يقول ابن حماد:" وانصرف وفي انصرافه هذا مرّ بوادي سهر فاختطّ مدينة المسيلة، رسمها برمحه وهو راكب على فرسه، وأمر علي بن حمدون الجذامي المعروف بابن الأندلسية أن يبنيها ويحصنها

[1]- الداعي إدريس: المصدر السابق، ص215؛ وابن حيان: المقتبس، تح: الحجي، المصدر السابق، ص34؛ ومحمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، ط2، دار النفائس، 2007، ص110-111.

[2]- الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص254.

[3]- أغلب كتب الجغرافية تذكر هذه الرواية مثل البكري، المسالك والممالك، تح: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب،1992، ص722 يقول:"...مدينة المسيلة، وهي مدينة جليلة على نهر يسمى بنهر سهر، أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة"، كذلك ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص85، يقول:"هي مدينة محدثة استحدثها علي بن الأندلسي أحد خدم آل عبيد الله وعبيدهم..."
وياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ج5، ص130، يقول:"مدينة بالمغرب تسمى المحمدية اختطها أبو القاسم محمد بن المهدي في سنة315 وهو يومئذ ولي عهد أبيه"؛ والحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص558، حيث قال:"وهي مدينة جليلة على نهر سهر في بساط من الأرض... وأسس مدينة المسيلة أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي سنة ثلاث عشر وثلاثمائة".

[4]- المصدر السابق: ص217.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

ويحسنها وسماها المحمدية باسمه"[1]، ويقول الشاعر أحمد بن محمد المَرُّوذي واصفا نزول إسماعيل بالمسيلة:

ثم إلى مدينةٍ مَرْضيهْ أُسِستْ على التقوى محمدية

أقبل حتى حلّها ضحية بالنور من طلعته المضية

فحلّ في عسكره المسيلة في هيئة كاملة جميلة

للنصر في أرجائه مخيلة بنعمة من ذي العلى جليلة[2]

ويبدو أنّ بني حمدون كان حكمهم يتميز بنوع من الاستقلالية في إدارة شؤون إمارتهم، وهو ما يشير إليه ابن خلدون بقوله:"واستجدوا بها سلطانًا ودولة، وبنوا القصور والمنتزهات واستفحل ملكهم وقصدهم بها العلماء والشعراء"[3]، وبذلك أصبحت المسيلة هي العاصمة السياسية والإدارية لبلاد الزاب، والمركز التجاري والحضاري للمنطقة الممتدة من باغاية شرقًا إلى تيهرت غربًا، ويذكر ابن حماد الصنهاجي أنه لم تكن في المنطقة مدينة غيرها[4]، وانتقل إليها الكثير من سكان المناطق المجاورة لها، وعظم أمرها كما قال النويري[5].

وكان من نتائج ثراء المدينة اقتصاديا ازدهارها من الناحية العمرانية، التي بلغت أوجها في عهد جعفر بن حمدون الذي اجتهد في تشييد القصور الفاخرة والمنتزهات، ويعود اهتمام أسرة بني حمدون بالجانب الحضاري لكونها أسرة أندلسية، ولا ريب أن نشأة والدهم علي بن حمدون الأندلسية جعلته يهتم بتنشيط مدينته حضاريا

(1)- ابن حماد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشـر والتوزيع، القاهرة، ص45،46.

(2)- البكري: المصدر السابق، ص723، وابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص215.

(3)- ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص108.

(4)- ابن حماد، المصدر السابق، ص47.

(5)- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، ط1، دار الكتب العلمية، بيـروت، 2004، ج28، ص70.

وعمرانيا[1]، وهاهو الشاعر ابن هاني الأندلسي الذي عاش في المدينة يصف لنا في القصيدة التي مدح فيها جعفر بن علي صورة ما وصلت إليه المسيلة من رخاء وترف، ويشبهها ببغداد المغرب فيقول:

تَبَغْدَدَ منه الزابُ حتى رأيته يَهبُّ نسيمُ الروض فيه فيُستجفي[2]

وبذلك تمكنت أسرة بني حمدون من تحويل مدينة المسيلة من مجرد معسكر ومخزن للجيوش الفاطمية، إلى عاصمة سياسية واقتصادية لبلاد الزاب والمغرب الأوسط عموما، ومركز إشعاع حضاري، وقِبلةً للعلماء والأدباء، وبلغت شأوا بعيدا في خدمة العلم وتثبيت قواعد الأمن والاستقرار، ولولا أنّ بني عُبيد كانوا قد وجّهوا عنايتهم للمشرق من جهة، وأنّ الزيريين لم يكونوا يتربصون ببني حمدون الدوائر، لبلغت إمارة المسيلة ما بلغته إمارات المشرق في تلك الفترة[3].

3- تصدي بني حمدون لمناوئي الدولة الفاطمية:

شكّل بنو حمدون سدّا منيعا أمام تحرّشات قبيلة زناتة المناوئة للفاطميين، والموالية لأمويي الأندلس، ففي سنة 317هـ، زحف عبد الله بن خزر[4] في جيش ضخم قاصدا المسيلة، فاضطر علي بن حمدون إلى الاعتصام بقلعة فيعة بجبل قرب المسيلة، تفاديا للمواجهة، وعندما فشل ابن خزر في اقتحام أسوار المدينة غيّر وجهته صوب تيهرت، فأغار عليها، وقطع عنها الإمدادات والميرة[5].

---

[1]- محمد سعداني: المرجع السابق، ص120.

[2]- ابن هاني: ديوان ابن هاني الأندلسي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص211.

[3]- أحمد بن ذياب: المسيلة وإمارة بني حمدون وأميرها جعفر بن علي، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1972، عدد7، ص59.

[4]- بنو خزر: بطن من قبيلة مغراوة الزناتية إحدى قبائل البربر البتر، تركز سكنهم في المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة، تذكر الروايات أنّ أميرهم صولات بن وزمار وفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأسلم على يديه وأبقاه على ملكه في قومه، ومن يومها أعطى بنو خزر ولاءهم لبني أمية، وساندوا الخلافة الأموية في الأندلس مراعاة لذلك الولاء. انظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص33- 34.

[5]- ابن حيان القرطبي: المقتبس في أخبار رجال الأندلس،تح: ب شالميتا، وآخرون، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب، الرباط، 1979، ج5، ص259.

وتعززت مكانة المسيلة أكثر في عهد الخليفة الفاطمي المنصور[1]، حيث لعبت دورًا عسكريًا وتموينياً للجيش الفاطمي خلال إخماده لثورة أبي يزيد بن مخلد[2]، فكانت قاعدة لعملياته الحربية[3]، وبفضلها تمكن المنصور من التغلب على مشكلة التموين أثناء ملاحقته لأبي يزيد الذي لم يفلح في دخول المسيلة بعد محاصرته لها وهو ما يدل على حصانتها ووفرة المئونة فيها[4]، وقد أكد ابن خلدون الوظيفة التموينية للمسيلة بقوله: "وشحنها بالأقوات التي كانت ميرة للعساكر عند محاصرة المنصور لأبي يزيد صاحب الحمار بجبل كتامة"[5]، وقد أبدى علي بن حمدون إخلاصا كبيرا للفاطميين، حيث قام بتجهيز جيش كبير للدفاع عن المهدية عاصمة الفاطميين التي كانت تواجه حصار أبي يزيد بن مخلد وفي ذلك يقول الداعي إدريس:" وخرج يريد المهدية معاضدة للأولياء"[6]، وفي طريقه حشد ما أمكنه من القبائل[7]، وفي نواحي باجة التحم مع جيش أيوب بن أبي يزيد بن مخلد، فلقي حتفه في تلك المعركة حيث تَرَدّى به فرسه من مكان شاهق، وكان ذلك في سنة334هـ/ 945م [8]،

---

[1]- هو إسماعيل بن القائم، ولد بالمهدية في سنة 303هـ، أمه من جواري الأسرة الأغلبية، عينه والده وليًا للعهد منذ أن اعتلى سُـدّة الحكم، وتولى مقاليد الأمور في سنة 334هـ/ 946م، وتمكن من القضاء على ثورة أبي يزيد بن مخلد. انظر: المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص88؛ ومحمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، ط2، دار النفائس، 2007، ص133- 134.

[2]- هو أبو يزيد بن مخلد بن كيداد اليفرني، وكان أحد أئمة الإباضية النكّار، اشتدّ أمره في إفريقية سنة 332هـ، حتى فرّ منه الخليفة الفاطمي أبو القاسم محمد القائم من رقّادة إلى المهدية، وكان بين أبي القاسم وأبي يزيد حروبًا كثيرة. انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص216، 218.

[3]- الهادي روجي إدريس:المرجع السابق، ج1، ص55.

[4]- محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص212.

[5]- ابن خلدون: العبر، ج4، ص107.

[6]- المصدر السابق، ص333.

[7]- نفسه: ص333.

[8]- نفسه: ص334؛ وابن خلدون: العبر، ج4، ص108؛ وابن حيان: المقتبس، تح: الحجي، المصدر السابق، ص35.

وبعد إخماد هذه الثورة قام المنصور بتولية جعفر بن علي بن حمـدون[1] على المسيـــلة والـــزاب[2]

وفي عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله[3] حظي جعفر بن حمدون بمكانة متميزة لدى الخليفة الفاطمي نظرا لصلة القرابة التي تربطهما، فكلاهما أخوان من الرضاعة[4]، وقيام المعز بإهداء فرسه المحببة إلى جعفر[5] دليل على المكانة التي كان كان يحظى بها عامل الزاب لدى الفاطميين، ولا يستبعد أنّ جعفر كانت له إنجازات كبيرة تتمثل في قيامه بصد أي تحرك من القبائل المعادية للفاطميين، وفي هذا الشأن يذكر ابن خلدون أنّ جعفر رافق جوهر الصقلي[6] في الحملة العسكرية التي أنفذها المعز إلى المغرب الأقصى في عام 347هـ/958م[7].

4- نكبة بني حمدون:

إلا أنّ هذه العلاقة سرعان ما ساءت وتدهورت؛ فحينما عزم المعز لدين الله الفاطمي الرحيل إلى مصر، فعرض على جعفر ليستخلفه على إفريقية والمغرب، فرد عليه جعفر قائلا:" تترك معي أحد أولادك أو إخوتك جالسا في القصر وأنا أدبّر، ولا

---

[1]- هو أبوعلي جعفر بن علي بن أحمد بن حمدون الأندلسي صاحب المسيلة وأمير الزاب من أعمال إفريقية؛ كان سخيا كثير العطاء مؤثرا لأهل العلم. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص360.

[2]- ابن خلدون: العبر، ج4، ص108.

[3]- هو المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بن القائم بن عبيد الله المهدي، ولد بالمحمدية(المسيلة) في عام 319هـ، تولى السلطة في سنة 341هـ، وعمره اثنان وعشرون سنة، يُعد المعز من كبار رجال عصره علما وسياسة وحربا، بلغ نفوذ الدولة الفاطمية في عهده أقصى مداه، استولى على جميع بلاد المغرب ومصر، باستثناء طنجة وسبتة، وتوغلت جيوشه في بلاد الشام. انظر: المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص93؛ ومحمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص149.

[4]- ابن خلدون: العبر، ج4، ص107.

[5]- ابن حيان: المقتبس، تح: الحجي، المصدر السابق، ص24.

[6]- جوهر الصقلي: هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله الرومي، المعروف بالكاتب، كان من موالي المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي، أرسله المعز إلى مصر ليأخذها في عام 358هـ، بعد موت كافور الإخشيدي، ولما استقر جوهر في مصر شرع في بناء القاهرة وسيّر جيشا إلى دمشق فملكها. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص375-376.

[7]- المصدر السابق، ج4، ص59.

تسألني عن شيء من الأموال إن كان ما أجبيه بإزاء ما أنفقه؛ وإذا أردتُ أمرا فعلتُه ولم أنتظر ورود الأمر فيه، لِبُعدِ ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قِبَلِ نفسي"، فغضب المعز وقال: "يا جعفر: عزلتني عن ملكي، وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري، واستبددت بالأموال والأعمال دوني، قم فقد أخطأت حظك، وما أصبت رشدك"[1]، فما كان من جعفر إلا أن شرع في التخطيط للقضاء على منافسه عامل أشير زيري بن مناد[2] الذي نجح في رفع منزلته عند الفاطميين من خلال الخدمات التي قدمها لهم أيام ثورة أبي يزيد الخارجي[3]، فكافأه الفاطميون بتوسيع ولايته وهو ما جعل جعفر يستاء من غريمه وتحدث بينهما المحاسدة والعداوة[4]، وكان جعفر يدرك صعوبة منافسة خصمه زيري المتحصن بقبيلته الكبيرة صنهاجة، على عكس جعفر الذي ليس له انتماء قبلي يستند إليه، ولتعويض هذا النقص أقدم جعفر على خطوة خطيرة تتمثل في التحالف مع الزناتيين المغراويين أعداء الفاطميين، وحلفاء أمويي الأندلس[5]، وكان يتطلب منه ذلك بذل الأموال لإنفاقها على حلفائه، مما دفعه إلى الأخذ من الأموال التي كان يرسلها إلى خزينة الدولة الفاطمية[6]، ووصلت الأمور إلى القطيعة عندما تم كشف التحالف بين جعفر والزناتيين على يد زيري بن مناد، ففي إحدى معاركه مع الزناتيين تمكن من القضاء على أمير زناتة محمد بن الخير بن الخزر، ووجد عنده الفرس التي

---

[1]- المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص99.

[2]- هو زيري بن مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر، من تلكاتة وهي فرع من قبيلة صنهاجة، وكان من أعظم ملوك البربر، وأول من ملك من الصنهاجيين بالمغرب الأوسط، وكانت بينه وبين الزناتيين حروبا كثيرة، وعند قيام الدولة الفاطمية كان زيري من مناصريها، ودعمهم أيام ثورة أبي يزيد الخارجي فكافأه الفاطميون بتوسيع نفوذه، واستخلاف ابنه بلكين على بلاد المغرب، وكانت نهايته على يد قبيلة زناتة. انظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص202 وما بعدها؛ وابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص343؛ والنويري: المصدر السابق، ج24، ص85 وما بعدها.

[3]- ابن خلدون: العبر، ج4، ص53 وما بعدها.

[4]- الأستاذ جوذر: المصدر السابق، ص100؛ وابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص59، 60، 108. 108.

[5]- ابن حيان: المقتبس، تح: الحجي، المصدر السابق، ص35؛ وعبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص192.

[6]- الأستاذ جوذر: المصدر السابق، ص129.

أهداها الخليفة المعز لجعفر، الذي أهداها بدوره إلى أمير زناتة، كما عثر زيري في بيت ابن خزر على رسائل بخط جعفر كان يرسلها إلى الزناتيين، ويطلعهم فيها على تحركات زيري وعوراته، فقام زيري بإرسال هذه الأدلّة إلى المعز الذي غضب من جعفر وتَهدّدَهُ بالقتل، ثم كتب إليه يعزله عن إمارة المسيلة ويأمره بالمثول بين يديه، وكتب إليه في فصل من كتابه:"أعظم الله أجرك في خليلك فقد أجاد قتالنا على الفرس الذي كنا حملناك عليه وآثرناك به على أنفسنا". فأيقن جعفر بانّ نهايته قد اقتربت، وما كان منه إلا الفرار من المسيلة مع أخيه يحي وجميع أهله وولده، والتخلي عن إمارته معلنا انفصاله عن الدولة الفاطمية والتحاقه بالزناتيين، ثم رحيله إلى الأندلس في سنة 360هـ، لخدمة الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله(302- 366هـ/ 915- 976م)[1].

وبعد انفصال بني حمدون عن الفاطميين يبدو أنّ يحي بن علي بن حمدون خلع طاعة الأمويين، وانحاز مجددا إلى طاعة الفاطميين، ولحق بمصر ونزل بدار العزيز بالله الفاطمي[2] فأكرم نزله[3]، وفي سنة 390هـ أرسله الحاكم بأمر الله[4] على رأس

---

[1]- ابن حيان: المقتبس، تح: الحجي، المصدر السابق، ص35 وما بعدها؛ وابن الأبّار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: الحُلّة السيراء، تح: حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985، ج1، ص306؛ وابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص205.

[2]- العزيز بالله(365-386هـ/ 975-996م): هو أبو منصور نزار، الملقب العزيز بالله، ابن المعز لدين الله بن المنصور بن القائم بن المهدي، ولد في المهدية سنة 344هـ، وارتحل مع والده إلى مصر، بويع بالخلافة سنة 365هـ، كان كريما شجاعا حسن العفو عند المقدرة، اتسعت مملكته عن مملكة أبيه، وخُطِب له في حمص وشيزر وحلب، والموصل واليمن، توفي سنة 386هـ. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص371، 374؛ والمقريزي: اتعاظ الحنفا، المصدر السابق، ج1، ص236 وما بعدها.

[3]- ابن خلدون: العبر، ج4، ص109-110 ؛ و ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص9؛ وابن الأبّار: المصدر السابق، ج1، ص307.

[4]- الحاكم بأمر الله(386-411هـ/ 996-1020م): هو أبو علي المنصور بن المعز بن المنصور بن القائم بن عبيد الله المهدي، ولد سنة 375هـ/ 985م بالقاهرة، ولي الخلافة بعد وفاة والده المعز في عام 386هـ/ 993م، كان يحمل الناس على أشياء غريبة، منها أنه أمر الناس في سنة 395هـ، بكتب سب الصحابة رضوان الله عليهم في حيطان المساجد والشوارع، ثم تراجع عن ذلك، وأمر النصارى واليهود بلبس العمائم السود، وأن يرتدي النصارى الصلبان في أعناقهم، وفي عام 408هـ أمر بهدم

جيش لمساعدة فلفل بن خزرون الزناتي في استرجاع طرابلس من أيدي باديس بن المنصور الزيري[1]، وعقد له على أعمال طرابلس وقابس[2]، وفي سنة 393هـ قام يحي بن علي وفلفل الزناتي بمحاصرة قابس، ثم ما لبث أن رجع يحي إلى مصر بسبب قلة المال وسوء الأحوال[3]، وعندما وصل يحي إلى مصر عزم الحاكم بأمر الله على قتله، ثم عفا عنه بعد ذلك[4]، ولم يزل بمصر إلى أنْ هلك هناك[5].

ويتبين لنا مما سبق ذكره، أنّ عائلة بني حمدون كان لها دورا بارزا في تأسيس الدولة الفاطمية، وكان أبرزهم علي بن حمدون الذي لم ينس له الأئمة الفاطميون فضله فقاموا بتقريبه ورشحوه لأعلى المناصب في دولتهم، وبعد وفاته استمر ولاء العائلة للفاطميين، حيث كان ابنه جعفر في مستوى الثقة التي وضعها فيه خلفاء بني عبيد، إلا أنّ طموحاته الزائدة حرمته من إمارة بلاد المغرب بدلا عن الزيريين.

الكنائس في الديار المصرية، ثم كفّ عن ذلك، توفي الحاكم في عام 411هـ/ 1020م. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص292 وما بعدها.

[1]- باديس بن المنصور(386-406هـ/ 995-1015م): هو باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وكنيته أبو مناد، ولد سنة 374هـ/ 984م بأشير، تولى الحكم بعد وفاة والده المنصور سنة 386هـ/ 995م، توفي سنة 406هـ بالمحمدية أثناء حروبه مع عمه حماد. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص265.

[2]- ابن خلدون: العبر، ج4، ص110؛ ونفسه: ج7، ص56؛ وابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص9؛ والمقريزي: المصدر السابق، ج2، ص34.

-[3] ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص256.

[4]- ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص25؛ وابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص256؛ والمقريزي: المصدر السابق، ج2، ص34.

[5]- ابن خلدون: العبر، ج4، ص110.